القيم الأخلاقية في لامية الشنفرى

د. انتصار مهدي عبدالله الصديق*

المستخلص:

تناولت هذه الورقة القيم الأخلاقية في الشعر الجاهلي في معلقة الشنفرى الأسدي المشهورة (بلامية العرب)، وضرورة الدراسة هي الإشارة إلى ضعف تمسكنا كأمة مسلمة بكثير من قيمنا الأخلاقية الفاضلة، وعلى أي مستوى من فئاتنا العمرية ومستوياتنا الثقافية والحضارية.

تهدف الورقة للتعرف والتذكير بالقيم الأخلاقية الجميلة عند العرب الجاهليين وذلك من خلال نموذج من أشعارهم وهي لامية الشنفرى. وكذلك الوقوف على هذه القيم والتأكيد على ما فيها من خير وعدلٍ وشجاعة وبطولات ووفاء وعزة وكرامة.ومحاولة للتعرف على أخلاق العرب البدو، على الرغم من أنهم ما كانوا لا يدينون إلا قليلا منهم سوى عقائد سطحية متفرقة قبل ظهور الإسلام، وقد جاء في قصصهم الكثير من تهذيب للأخلاق وحث على القيم الفاضلة. وإمكانية الاستفادة من هذه القيم والعمل على ما أستحسن منها وما نحتاجه منها في عصرنا الحديث.وأخيرا نورد أمثلة عن القيم من خلال شعر العرب الذي يعكس حياتهم ومجتمعهم.

*أستاذ مساعد :كلية التربية جامعة الزعيم الأزهري

تحقيقاً لأهداف البحث فقد استخدمت المنهج الاستدلالي وذلك من خلال القيم التي وردت في الشعر الجاهلي متمثلاً في لامية الشنفرى، وما حوته من قيم نبيلة مع شرح لهذه الأشعار وتحليلها.

ABSTRACT:

This paper dealt with the moral values of the pre-Islamic poetry in a famous “Mu’allaqa” of Alshanfari Alasdi (the Arab Lamiae). The importance of this study is to demonstrate the weakness of our adherence, as Muslims, to many of the virtuous values for all ages, groups, and levels of culture and civilization. The paper aims to understand and remind the values in the pre-Islamic Arabs, through the models of poetry like the Laminae of Alshanfari, and to look into these values, emphasize all virtues, justice, carriage, loyalty, pride, and dignity, and try to identify the values of the Arab Beduins, although they cared only superficially for religion in the pre-Islamic era. What is manifested in their stories is a lot of issues in the refinement of morality. The paper seeks how to reflect these values in our modern lifestyles. Examples have been grouped for each of the life patterns where moral values are mentioned. To achieve the objectives of this research, the deductive approach has been used to demonstrate the values as reflected in the pre-Islamic example of the Lamiae and its content of values interpreted and analyzed.

مقدمة:

إنَّ موضوع دراسة القيم الأخلاقية يعد من المواضيع المهمة في حياتنا، وكانت هذه الدراسة محط اهتمام الكثير من الباحثين في الوقت السابق والوقت الراهن، فموضوع الأخلاق والعمل بما فيها من قيم فاضلة تحفظ للمجتمعات حقوقها وتوثق لبطولاتها، و تزيد الإحساس بالآخرين وترفع الظلم عنهم. ولا يتأتى الدفاع عن مقدسات وحرمات الشعوب إلا بالمحافظة على القيم، والتمسك بها، والحث والتشجيع عليها، وذلك بالنسبة للأمم بمختلف ديانتها وثقافتها وطوائفها.

تعريف الأخلاق

الأخلاق لغة: الأخلاق في اللغة جمع خُلق، والخُلقُ اسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها، فقد ذكر ابن منظور: الخُلُقُ هو الدين والطبع والسجية[1] وهو مأخوذ من مادة (خ ل ق) للدلالة على تقدير الشيء. يقول ابن فارس: ومن هذا المعنى – أي تقدير الشيء – الخُلُقُ، وهو السَّجية لأن صاحبه قد قُدر عليه، يقال فلان خليق بكذا أي قادر عليه وجدير به، والخَلاقُ: النصيب لأنه قدِّر لكل أحد نصيبه.[2] ويضيف الراغب الأصفهاني أن الخَلاق أيضاً يشار به إلى ما أكتسبه الإنسان من الفضيلة، وأورد الراغب أيضاً في (المفردات) : الخَلْقُ والخُلْقُ والخُلُقُ في الأصل واحد لكن خُص الخُلُقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة، وحقيقة الخُلُقُ عنده هو ما يأخذ به الإنسان نفسه من الآداب، سمي بذلك لأنه يصير كالخِلقة فيه.[3] ويرى ابن منظور أن حقيقة الأمر مائلة في كون صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة

وأوصافها ومعانيها، ولها – أي الصورتين – أوصافٌ حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة[4]. وذات المعنى الذي ذهب إليه ابن منظور نجده عند الطاهر بن عاشور إذ يقول: الخُلُقُ السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خير أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر، لذلك لا يعرف أحد من النوعين من اللفظ إلا بقيد يُضم إليه فيقال: خُلُق حسن، وفي ضده خُلُق قبيح، فإذا أُطلق التقييد انصرف إلى الخُلُق الحسن [5].

الأخلاق اصطلاحاً: هي مجموعة القواعد، التي تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه سلوكاً، تجاه الآخرين (من طبيعة ومجتمع) يكتسبها الإنسان من انتمائه إلى مجتمع معين وزمان ومكان، كما يكتسبها المجتمع من مصادر متعددة (مطلقة كالدين أو نسيبة كالعرف الاجتماعي أو العقل...). وردت لفظة "خُلُق" (والجمع أخلاق) في القرآن والحديث وفي معاجم اللغة وكتب المصطلحات فضلاً عن المؤلفات الفلسفية. فالقرآن يخاطب الرسول (ﷺ) "وإنك لعلى خُلُقٍ عظيم" القلم/4.

ماذا نعني بالقيم؟

كانت الثقافة العربية في العصر الجاهلي "ثقافة أمية" في الأساس. وهذا لا يعني "غياب الكتاب". ومعروف أن العرب قد وصفوا في القرآن بـ "الأميين" لكونهم لم يكن لهم "كتاب" وذلك في مقابل "أهل الكتاب" من اليهود أصحاب التوراة والنصارى وأصحاب الإنجيل، ويجب أن لا نتوقع وجود كتب أخرى في مجتمع جل

سكانه يعيشون على الترحال في صحراء قليلة العمران. ومع ذلك فغياب الكتاب لا يعني بالضرورة غياب "المؤلف" ولا غياب "القراء".

وكان الشعراء والأدباء والناطقون بـ "الأمثال" و"الحكمة" مؤلفين وناشرين للقيم، ولم تكن وسيلتهم في تبليغ ما "يؤلفون" من كلام منظوم أو منثور، ألسنتهم وحدها، فهذه كانت تخبو كما يخبو كل صوت بعد موت صاحبه، بل كانت وسيلتهم في "النثر" رواة أدبهم وسيرهم. ففي مجال الشعر "كثيراً ما كان يتتلمذ – الشاعر الناشئ – على شاعر آخر أرسخ منه قدماً في الشعر فيختص به ويصبح الموكل بحفظ شعره وإذاعته. والى جانب هذه الرواية المتخصصة وجد في الجاهلية وصدر الإسلام رواة كثر لم يكونوا يقصرون على شاعر واحد بل يروون جيد الشعر العربي مهما اختلف قائلوه.[6] ويتميز الشعر العربي بكونه يجمع في قصيدة واحدة بين عدة موضوعات أو أغراض. وقد لا تخلو القصيدة الجاهلية من مقدمة في الغزل والوصف ليأتي الغرض الرئيسي بعد ذلك مدحاً، أو فخراً، أو هجاءً، أو رثاءً، ولابد أن يأتي بالحكمة بعد ذلك أو أثناء ذلك و"الحكمة" في هذا المجال تعني القول الذي يحمل قيمة اجتماعية أو إنسانية مطلقة، صالحة لكل زمان و مكان. وقد كان هناك من اشتهر بغلبة "الحكمة" في شعره مثل زهير بن أبي سلمى، والسمؤال، وعدي بن زيد، وأمية بن أبي الصلت الخ.. ولا شك أنه كان هناك إلى جانب رواة الشعر من كانت له عناية مماثلة، أو مقاربة، بالخطب والأمثال والحكم.

ومهما يكن من شأن درجة الصحة في هذه الروايات ما يهمنا هو أن الرائج من المرويات كان يحمل قيماً معينة، بل يمكن القول إن رواج هذا القول أو ذاك،

شعراً كان أم نثراً، كان يتوقف على مدى "القيمة الأدبية" التي يحملها، وهي القيمة التي كانت توزن بمدى جمعه بين "اللفظ الجميل" و"المعنى الشريف"، بين ما ينتمي إلى أدب اللسان وما ينتمي إلى أدب النفس. وكان تأثير القول الجامع بين القيمتين، اللغوية والأخلاقية عظيماً إلى درجة إنه كان الاستشهاد به في مجالس السمر والمناظرة والجدل بمثابة الضربة القاضية، إي أنه "فصل الخطاب" ولكي تقدر مبلغ تأثير هذا النوع من الاستشهاد في توزيع القيم والترويج لها، وتكريسها وبالتالي فرض سلطتها، يكفي أن نلاحظ دوره في حياتنا المعاصرة فمن منا لم يستشهد بينه وبين نفسه أو من أجل إقناع مخاطبيه لزهير بن أبي سلمى أو لطرفة بن العبد أو للمتنبي الخ..

إن جميع من يذكرون من الشعراء والخطباء العرب وغيرهم ممن ينسب له شيء من الشعر أو النثر هم مبدئياً مرجعيات معتمدة في الموروث العربي الخالص، بما في ذلك الذين عاشوا في صدر الإسلام والعصر الأموي، فإن هناك رجالاً ونساءً يعتبرون مشخصين لهذه القيمة أو تلك (فضيلة كانت أو رذيلة)، لكونهم بلغوا بها مبلغ مضرب المثل. يقول بن عبد ربه تحت عنوان "من ضُرب به المثل من الناس" قالت العرب: أسخى من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكدم. وأدهى من قيس بن زهير، وأعز من كليب بن وائل، وأوفى من السمؤال، وأذكى من إياس بن معاوية، وأسود من قيس بن عاصم، وأمنع من الحارث بن ظالم، وأبلغ من سحبان بن وائل، وأحلم من الأحنف بن قيس، واصدق من أبي ذر الغفاري، وأكذب من مسيلمة الحنفي، وأعيا من باقل، وأمضى من سليك المقانب، وأنعم من حريم الناعم، وأحمق من هبنقة، وأفتك من البراص. أما من يضرب به المثل من النساء

فيذكر إنه يقال أشأم من البسوس، وأحمق من دغة، وأمنع من قرفة، وأقود من ظلمة، وأبصر من زرقاء اليمامة[7].

ومع ذلك كله، فالباحث يستطيع، من التعمق في دارسي آثارهم الأدبية، أن يستشف من بعضها لوناً آخر من التفكير الأخلاقي، وأن يتبين أنهم عرفوا شيئاً عن النفس الإنسانية وما فطرت عليه من طبائع، كما يعرف في سهولة ويسر أنهم هُدوا بدافع الفطرة السليمة إلى كثير من الفضائل التي كانوا يتواصون بها ويفخرون بتوارثها. إني أرجح أن يكون من العرب في تلك الفترة من حياتهم من عرف وثاقة الصلة بين العلم والفضيلة، أو على الأقل من حام حول هذه الفكرة، فمن عرف الخير في عمل اندفع إليه بباعث من المعرفة. أرجح هذا جداً، وقد يرجحه معي كثيرون، حين أقرأ قول زهير بن أبي سلمى;[8]

ومن يُوفِ لا يذمُمْ ومن يفضِ قلبهُ * إلى مُطمئنِ البرِ لَم يتجَمْجَمِ

فإني أفهم منه أن البر متى عرف يقيناً أن هذا العمل خير، واطمأن قلبه إلى ذلك ولم يتردد في الإتيان به. وهذا فيما نرى ما ذهب إليه "سقراط" حين أكد أن الفضيلة هي العلم أو المعرفة وإن كان زهير لم يفلسف هذه الفكرة ولم يطبقها مثل سقراط. على أننا حين نتكلم عن العرب عامة، نجد أن ما عرفه الأخلاقيون فيما بعد بالمثل أعلى كان عندهم ما يصح أن نطلق عليه كلمة واحدة هي : (المروءة) التي تقوم على الشجاعة والكرم، هاتان الفضيلتان اللتان هما جماع الفضائل في رأيهم ومناط الفخر لديهم، ذلك بأن حياة العربي غير المستقرة أو المطمئنة، الحياة التي يتقلب فيها بين شظف العيش ونعيمه، كانت تدفعهم دفعاً عنيفاً إلى تقدير الشجاعة

تقديراً خاصاً، إذ كانا أهم وسائل الحياة والدفاع عن كيانهم وأحسابهم، وبهما يكون المجد وحسن الذكر.

يقول الأستاذ الدكتور جواد علي: "وتتمثل المثل الجاهلية العليا في المروءة، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية. ومن المروءة الحلم والصبر، والعفو عند المقدرة، وقري الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة الجار، وحماية الضعيف. والمروءة عند الجاهليين الدين عند المسلم. وقد ورد أن المروءة ألا تفعل سراً أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً، فهي أقصى ما يكون من أخلاق في الرجل الكامل الشجاع. وقد أقرها الإسلام في جملة ما أقره من فضائل الجاهلية [9] ورد في الحديث الشريف: "الدين المروءة" و"لا دين إلا بمروءة"

اللامية:

برزت هذه القيم بصورة واضحة عند الشاعر الجاهلي الشنفري الأزدي الذي تفرد بقصيدة طويلة سماها النقاد (لامية العرب) صورت حياة المجتمع البدوي من طبيعة وفطرة خالصة، وحروب وصبر وعلاقة بين القبائل، لا تكلف فيها ولا صنعة، صورت الآلام والصعاب التي كان يعانيها المجتمع القبلي من حروب وبطش وطرد وهدر للحقوق والتنكر والاستعباد، وحب الحرية والإباء. اشتملت هذه القصيدة على شمائل إنسانية، ومحامد خلقية، مثل العفة والترفع، والصبر والشجاعة وحسن البلاء في الحروب، وسمو النفس، المروءة وقوة الإرادة والاعتداد بها.

وتميزت اللامية بالترفع عن ذكر النساء وذكر الخمر ووصفها، ورأى صاحبها في ذلك ضعفاً وعجزاً يقف في طريق هدفه.

نسب بعض الرواة إلى النبي (ﷺ) قولاً جاء فيه " علَّموا أولادكم لاميَّة العرب، فإنها تعلمهم مكارم الأخلاق" فأن صحت هذه المقولة فهذا شرف للشاعر وحق لنا كبحاثين أن نعكس ونستذكر ما ورد فيها من قيم جميلة نحتاجها في كل زمان ومكان.

ومن أهم الدراسات التي عملت بأمر هذه اللامية وشروحها قديماً وحديثاً وكانت مرجعيات لنا في هذا العمل من الكتاب والنقاد الذين افردوا لها كتباً خاصة: (1) أعجب العجب شرح لامية العرب، للزمخشري، و(2) نهاية الأرب في شرح لامية العرب لعطاء الله بن أحمد المصري المكِّى، و(3) شرح العكبريّ، لأبى البقاء العكبرى، ز(4) شرح المبرد، للمبرد، و(5) لامية العرب للشنفرى، للدكتور صلاح الدين الهواري.

وقبل أن نغوص في ثنايا لامية الشنفري لابد لنا أن نقف عند شاعرها وعند أصحابه والتعرف عليه وعن مغامراتهم ودوافعهم لهذا النوع من الشعر وسبب تسميتهم ببعض الأسامي.

الشَّنْفَرَى (عَمْرو بن مَالِك الأزْدِيّ)

تعريف بالشاعر:

اختلف الرواة والمؤرخون حول اسم "الشّنْفَرّى" [10] ونسبه، فمنهم من رأى أن اسمه عمرو بن مالك [11] أو ثابت بن أوس الأزدي، وأن "الشنفرى" هو لقب غلب عليه، وهذا ما يقع عليه إجماع الرواة والمؤرخين. ومنهم من رأى أن "الشنفرى" هو اسم الشاعر الحقيقي[12] وأن الأسماء التي لحقته كانت من قبيل التَّزيُّد والوَهْم. واختلفوا كذلك حول نشأة الشنفرى وأسباب مقتله أيضاَ، فرأى بعضهم[13] أنه كان من الأواس بن الحجر بن الهنو بن الأرز بن الغوث، فأسرته بنو شبابة بن فهم بن عمرو بن قيس بن عيلان طفلاً، فلم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان بن مفرج بن عوف بن ميدعان بن مالك بن الأزد رجلاً من فهم، ثم أحد بني شبابة، ففدته بنو شبابة بالشنفرى، فكان الشنفرى في بني سلامان بن مفرج لا يُحسب إلا منهم، حتى نازعته ابنة الرجل الذي ربَّاه وتعهَّده وتبنَّاه، حين قال لها الشنفرى: اغسلي رأسي يا أُخَيَّة – وهو لا يشك في انها أخته – فأنكرت أخُوَّته، ولطمته، فذهب حتى أتى الرجل الذي اشتراه من فهم، وسأله أن يصدقه القول في حقيقة أصله وأهله، فأخبره الرجل، فَشَقَّ عليه ذلك، وأخذ على نفسه أن يقتل مائة رجل منهم جزاء استعبادهم له، وإخفائهم لحقيقته. ثم بدأ يُخاتلهم، ويناوشهم ويغير عليهم حتى قتل تسعة وتسعين رجلاً منهم، وقال يخاطب الجارية السلامية التي لطمته وأنكرته، ويفتخر بحسبه ومكانة أهله وعشيرته:

ألا لَيْتَ شِعْرِي والتَّلهُّفُ ضِلَّةٌ * بِما ضَرَبَتْ كَفُّ الفَتَاةِ هَجِينَهَا

ولّو عَلِمَتْ قَعْسُوسُ أنْسَابَ وَالِدِي * وَوَالِدِها ظَلَّتْ تَقَاصَرُ دُونَـها

الشَّنْفَرَى والصَّعَاليك:

شهد المجتمع الجاهلي في جزيرة العرب نشؤ فئة متمردة ثائرة على قوانين المجتمع القبلي وأعرافه عرفت بـ "صعاليك العرب". فمن هم هؤلاء الصعاليك؟ وكيف كانت نشأتهم؟ وما هي أهدافهم؟ وما موقع الشَّنْفَرى في حركتهم؟.

إن من يراجع تاريخ العرب قبل الإسلام لا شكّ سيلاحظ تفاوتاً حاداً بين طبقات المجتمع العربي آنذاك، أي بين أصحاب السلطة والنفوذ، من ملوك، ومشايخ، وأشراف، وأغنياء، وتجار، وأسياد من ناحية، وبين الفقراء، والعبيد، والخدم، وسائر المستضعفين من ناحية أخرى. وقد أدى ذلك التفاوت الكبير بين الطبقات إلى كراهيةٍ حاقدةٍ، وعداءٍ شديد بين الناس، كان يخفى حيناً، ويطهر حيناً آخر، حتى انتفضت من قلب طبقة الفقراء والمظلومين فئة ثارت على أعراف القبيلة، وظلم أغنيائها، وحاولت بطريقتها الخاصة، إرساء قواعد جديدة لمجتمع يسوده العدل والتكافل والإخاء والمساواة. وقد أُطلق على هذه الفئة اسم "صعاليك العرب" أي: فقراء العرب الذين لا مال لهم ولا اعتماد، أو هم ذؤبانهم، لما عُرفوا به من إغارة وفتك.

ويقال: إن أفراد هذه الفئة قد امتازوا بالشجاعة والأنفة والإقدام، إلى جانب قوة البدن، وسرعة العدو، وخفة الحركة. ولم تمرّ ظاهرة التصعلك مروراً سريعاً في التاريخ العربي، بل كان لها أثرها البارز في حياة العرب، وجدانهم، وأدبهم، يقول الدكتور منذر معاليقي في كتابه "صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية": "احتل الصعاليك منزلة هامة في تاريخ العرب – القديم والحديث – وكانوا تعبيراً حاداً عن أزمة المجتمع ومشكلاته، ومنبراً في تاريخ الشعوب المضطهدة، وحركتها التغييرية والإصلاحية. التزموا بأهدافها المبدئية (عدالة اجتماعية، حرية سياسية،

توازن اقتصادي)، وخرجوا على أعراف المجتمع القبلي وثاروا على أوضاعه الطبقية. فقاتلوا الفقر ومسبباته، وطاردوا الجوع وويلاته، وما يلحق عواقبه من ذلٍّ وهوان، وساووا بمقدرتهم القتالية، وشهامتهم الفروسية، أسياد العرب وسراتهم".[14]

ولم يقف اثرهم عند هذا لحدّ، ولكن تعدَّاه إلى أبعد من ذلك بكثير، فقد عكست ظاهرتهم "طبيعة الحياة العامة، وبينت علاقاتها الخاطئة، التي فرّقت الأهل، وشرّدت أفراد العائلة الواحدة لاختلاف الجنس أو اللون، وجعلت بالتالي الآباء يرفضون إلحاق أبناء الحبشيات بنسبهم، لسوء خلقتهم السوداء، وعار ولادتهم، أمثال السُّليك بن السُلكة، وتأبّطَ شرًّاً، والشَّنْفَرَى، والتي أوجدت مجموعة من الصعاليك، عُرِفَ بعضهم بالشذاذ أو الخلعاء، ممن طردتهم قبيلتهم، وخلعتهم من عصمتها، ونبذتهم من عضويتها، بسبب أعمالهم المنافية لأعراف القبيلة، والأضرار التي يلحقونها بها، أمثال حاجز الأزدي، وقيس بن الحدَّادية".[15]

ولا يخرج هؤلاء الصعاليك على قبائلهم، لِسَفهٍ أو دناءة خُلُقٍ، أو سُقوط نفسٍ، ولكن من أجل تغيير الأعراف الجائرة، ونسف قواعد الظلم واحتكار الثروات، ومن أجل تحقيق العدل والمساواة بن السَّيِّد والمَسُود، وبين الأبيض والأسود، وبين الفقير والغني. لذلك كانوا يُغيرون على الأغنياء وحدهم – في قبائلهم وغيرها – فيقتلون ويغنمون، ثم يسرعون بالعودة إلى قلب الصحراء، ويوزعون ما استلبوه على فقرائهم وضعافهم. وقد لُقِّب عروة بن الورد بـ "عروة الصعاليك" [16]لأنه كان إذا أصابت الناس شِّدة، وتركوا في ديارهم المريض والكبير والضعيف، يجمع أشباه هؤلاء، ويكنف عليهم، ويكسوهم، ويؤثرهم على نفسه. [17]

ولأنهم كانوا يؤمنون بعدالة قضيتهم، ونزاهة أهدافهم، فقد كان الصعاليك يفتخرون بأعمالهم وبطولاتهم وغاراتهم، وإن كان يتخللها قتل، وذبح، ونهب، وسبي، فالغاية في عُرْف الصحراء تُبرّر الوسيلة.

يقول تأبَّط شرًا، وقد أغار ومعه عمرو بن براق الفهمي على "بجيلة"، وعاد سالماً غانماً[18]

لا شَيْء أَسْرَعُ مِنِّي لَيْسَ ذا عُذُرٍ * وذا جَنَاحٍ بِجَنْبِ الرَّيْدِ خَفَّاقِ
حَتَّى نَجَوْتُ ولمَّا يَنْزَعوا سَلَبي * بِوَالِهٍ من قَبيضِ الشَّدِّ غَيْدَاقِ
"حَمَّالِ أَلويةٍ شهَّادِ أنديةٍ * قوَّالِ مُحْكَمَةٍ جوَّابِ أَفَّاقِ"

ويقول عروة بن الورد مفتخراً بشجاعته وإقدامه وشدَّة فتكه: [19]

إذا قِيلَ يا ابْنَ الوَرْدِ أَقْدِمْ إلى الوضغَي * أَجَبْتُ فَلَاقاني كَمِيٌّ مُقَارِعُ
بِكَفِّي مِنَ المَأثُورِ كالمِلْحِ لَوْنُه * حَديثٌ بإخلاص الذُّكُورَة قَاطِعُ
فَأَتْرُكُهُ بالقاعِ رَهْنَاً بِبَلْدَةٍ * تَعاوَرَهُ فِيها الضِّبَاعُ الخَوَامِعُ

ولا ينسى هؤلاء الصعاليك وهم يغيرون ويقتلون ويغنمون أن يحافظوا على فضائلهم السلوكية وقيمهم الخلقية، يقول عروة(20)

فَلَا أَتْرُكُ الإخوانَ ما عِشْتُ للرَّدى * كَما أَنَّهُ لا يَتْرُكُ الماء شَارِبُهُ
ولا يُسْتَضامُ الدَّهْرَ جَارِي ولا أُرى * كَمَنْ باتَ تَسْرِي للصَّديقِ عَقارِبُهْ
وإنْ جَارَتِي أَلْوَتْ رِيَاحٌ بِبَيْتِها * تَغَافَلْتُ حتَّى يَسْتُرَ البَيْتَ جَانِبُهْ

وقد مثل الشَّنْفَرَى حركة الصعلكة بقيمها وقواعدها ومظاهرها أدق تمثيل. فمن حيث القوة البدنية، كان الشنفرى من العدَّائين الفتَّاك الرجلين، كان يسابق الخيل فلا تلحقه، حتى ضرب به المثل في سرعة الجري، فقيل: "أعدى من الشنفرى".[21]

وقيل: قيست نزوة (قفزة) من نزواته، فوجدت واحدة وعشرين خطوة (ثمانية أمتار ونصف المتر).[22]

أهم القيم التي حوتها لاميَّة العرَب:

الحرية:

أَقِيمُوا بَنِي أُمِي صُدُور مَطِيِّكُمْ * فَإنّي إلى قُوْمٍ سِوَاكُمْ لأمْيَلُ

فَقَدْ حُمَّتِ الحَاجَات، واللَّيْلُ مُقْمِرٌ * وشُدَّتْ، لِطِيَّاتٍ، مَطَايَا وَأَرْحُلُ*

*بنو الأم : الأشقاء أو غيرهم ما دامت تجمعهم الأم، واختار هذه الصِّلة لأنَّها أقرب الصِّلات إلى العاطفة والمودَّة. والمطيّ : ما يُمتَطى من الحيوان، والمقصود بها، هنا، الإبل. والمقصود بإقامة صدورها: التهيؤ للرحيل. والشاعر يريد استعدادهم لرحيله هو عنهم لا لرحيلهم هم، وربما أشار بقوله هذا إلى أنَهم لا مقام لهم بعد رحيله فمن الخير لهم أن يرحلوا.

حُمَّت: قُدِّرتْ ودُبِّرت. والطِّيَّات: جمع الطِّيَّة، وهي الحاجة، وقيل: الجهة التي يقصد إليها المسافر. وتقول العرب: مضَى فلان لطيَّته، أي لنيّته التي انتواها. الأرْحل: جمع الرحل، وهو ما يوضَع على ظهر البعير .وقوله:" واللَيل مقمِر " كناية عن تفكيره بالرحيل في هدوء، أو أنه أمر لا يُراد إخفاؤه. ومعنى البيت: لقد قُدِّر رحيلي عنكم، فلا مفرّ منه، فتهيئوا له

الإيمان بالذات والشجاعة:

وَفي الأَرضِ مَنْأىً لِلْكَرِيم عَنْ الأَذَى * وَفِيها، لِمَنْ خَافَ القِلَي، مُتَعَزَّلُ

لَعَمْرُكَ ما بالأرضِ ضِيقٌ على أمْرِيٍ * سَرَى رَاغباً أوْ رَاهباً، وَهْوَ يَعْقِلِ*

*المَنأى : المكان البعيد. القِلى: البغض والكراهية. والمتعزّل: المكان لمن يعتزل الناس. والبيت فيه حكمة: ومعناه أن الكريم يستطيع أن يتجنب الذلّ، فيهاجر إلى مكان بعيد عمَّن يُنتظر منهم الذلّ، كما أن اعتزال الناس أفضل من احتمال أذيتهم.

لعمرك: قَسَم بالعمر. سرى: مشى في الليل. راغباً: صاحب رغبة. راهباً :صاحب رهبة. والبيت تأكيد للبيت السابق، ومعناه أن الأرض واسعة سواء لصاحب الحاجات والآمال أم للخائف .

هُمُ الأهْلُ، لا مُسْتوْدَعَ السِّرِّ ذَائِعٌ * لديهم، ولا الجاني، بما جرَّ، يُخْذَلُ
وَكُلٌّ أبيُ، بَاسِلٌ، غَيْرَ أنَّني، * إذا عَرَضَتْ أُولَى الطَّرَائِدِ، أبْسَلُ*

*هم الأهل أي الوحوش هم الأهل، فقد عامل الشاعِرُ الوحوشَ معاملة العقلاء، وهو جائز. وقوله: "هم الأهل " بتعريف المسنَد، فيه قَصر، وكأنَه قال: هم الأهل الحقيقيّون لا أنتم. والباء في " بما " للسببية .والجاني: المقْترف الجناية أي الذنب. جرَّ : جنى. يُخْذَل: يُتَخلّى عن نصرته. والشاعر في هذا البيت يقارن بين مجتمع أهله ومجتمع الوحوش، فيفضل هذا على ذاك، وذلك أن مجتمع الوحوش لا يُفْشِي الأسرار، ولا يخذل بعضه بعضاً بخلاف مجتمع أهله . وكلٌّ: أي كل وحش من الوحوش التي ذكرتها. أبيّ: يأبى الذّلَّ والظلم .باسل: شجاع بطل. الطرائد: جمع الطريدة، وهي كل ما يُطرد فيصاد من الوحوش والطيور. أبْسَل: أشَدّ بسالَةً. والشاعر يتابع في هذا البيت مدح الوحوش فيصفها بالبسالة، لكنه يقول إنّه أبسل منها .

وإنْ مُدَّت الأيدي الى الزَّادِ لَمْ أَكُنْ * بأعْجَلِهِمْ، إذْ أَجْشَعُ القَوْمِ أَعْجَلُ

الشجاعة:

وإنّي كَفَانِي فَقْدَ مَنْ لَيْسَ جَازِياً * بِحُسْنَى، وَلا في قُرْبِه مُتَعلَّلُ

التعلّل: التلهّي، والمعنى: ليس في قربه سلوى لي، يريد : أني فقدتُ أهلًا لا خير فيهم، لأنهم لا يقدِّرون المعروف، ولا يجزون عليه خيراً، وليس في قربهم أدنى خير يُتَعلّل.

المروءة:

وَلَسْتُ بِمِهْيَافٍ يُعَشِّي سَوَامَهُ * مُجَدَّعَةً سُقْبانُها، وَهْي بُهَّلُ بِحُسْنَى،
وَلا جُبَّإٍ أَكْهَى، مُرِبّ بِعِرْسِهِ * يُطَالِعُها فِي شَأنِهِ كَيْفَ يفعلُ

المهياف: الذي يبعد بإبله طالباً المرعى على غير علم، فيعطش. السوام :الماشية التي ترعى. مجدَّعة: سيئة الغذاء. السُّقبان: جمع سقْب وهو ولد الناقة الذكر. بُهَّل: جمع باهل وباهلة وهي التي لا صرار عليها (الصِّرار :ما يُصَرّ به ضرع الناقة لئلا تُرضَع). يقول: لستُ كالراعي الأحمق الذي لا يُحسن تغذية سوامه، فيعود بها عشاءً وأولادها جائعة رغم أنها مصرورة .وجوع أولادها كناية عن جوعها هي، لأنها، من جوعها، لا لبن فيها، فيغتذي أولادها منه.

الجُبّأ: الجبان. والأكهى: الكدِر الأخلاق الذي لا خير فيه، والبليد .مُربّ: مقيم، ملازم. عرِسه: امرأته. وملازمة الزوج يدلّ على الكسل والانصراف عن الكسب والتماس الرزق. وفي هذا البيت ينفي الشاعر عن نفسه الجبن، وسوء الخلق،

والكسل، كما ينفي أن يكون منعدم الرأي والشخصية فيعتمد على رأي زوجه ومشورتها.

ولا خَرِقٍ هَيْقٍ كَأنَّ فُؤَادَهُ * يَظَلُّ بهِ المُكَّاءُ يَعْلُو ويَسْفُلُ
ولا خَالِفٍ دَارِيَّةٍ، مُتَغَزِّلٍ، * يَرُوحُ ويَغْدُو، دَاهِناً، يَتكَحَّلُ
ولَسْتُ بِعَلٍّ شَرُّهُ دون خَيْرِهِ * ألفَّ، إذا ما رُعْتَهُ اهْتاجَ، أعْزَلُ

زلّ: خرج. حنين القوس: صوت وترها. مُرزَّأة: كثيرة الرزايا (المصائب.(عَجْلى: سريعة. تُرنّ: تصوّت برنين، تصرخ. تُعول: ترفع صوتها بالبكاء والعويل. والمعنى أن صوت هذه القوس عند انطلاق السهم منها يشبه صوت أنثى شديدة الحزن تصرخ وتولول .

الخالف: الذي لا خير فيه. يقال: فلان خالفة (أو خالف) أهل بيته إذا لم يكن عنده خير. والدَّاريّ والداريّة: المقيم في داره لا يبرحها. المتغزّل :المتفرّغ لمغازلة النساء. يروح: يسير في الرواح، وهو اسم للوقت من زوال الشمس إلى اللَّيل. يغدو: يسير في الغداة، وهو الوقت من الصباح إلى الظهر .والداهن: الذي يتزيَّن بدهن نفسه. يتكحّل: يضع الكحل على عينيه. والمعنى أن الشاعر ينفي عن نفسه الكسل، ومغازلة النساء، والتشبّه بهنّ في التزيّن والتكحّل. وهو يثبت لنفسه، ضمناً، الرجولة .

العَلّ: الذي لا خير عنده، والصَّغير الجسم يشبه القُراد. ألفّ: عاجز ضعيف. رعتَه: أخفْتَه. اهتاج: خاف. الأعزل: الذي لا سلاح لديه.

ولستُ بِمِحْيارِ الظَّلامِ، إذا انْتَحتْ * الهَوْجَلِ العِسِّيفِ بَهْمَاءُ هَوْجَلُ

المِحْيار: المتحيّر. انْتَحَتْ: قصدت واعترضَتْ. الهدى: الهداية، والمقصود هداية الطريق في الصحراء. الهوجل: الرجل الطويل الذي فيه حمق.العِسِّيف: الماشي على غير هدى. اليَهْماء: الصحراء. الهَوْجَل: الشديد المسلك المَهول. وفي البيت تقديم وتأخير. والأصل: لست بمحيار الظلام إذا انتحت يهماء هوجل هدى الهوجل العسيف. والمعنى: لا أتحيّر في الوقت الذي يتحير فيه غيري المِحْيار: المتحيّر. انْتَحَتْ: قصدت واعترضَتْ. الهدى: الهداية، والمقصود هداية الطريق في الصحراء. الهوجل: الرجل الطويل الذي فيه حمق .العِسِّيف: الماشي على غير هدى. اليَهْماء: الصحراء. الهَوْجَل: الشديد المسلك المَهول. وفي البيت تقديم وتأخير. والأصل: لست بمحيار الظلام إذا انتحت يهماء هوجل هدى الهوجل العسيف. والمعنى: لا أتحيّر في الوقت الذي يتحير فيه غيري

العفة والوفاء والإباء:

أُدِيمُ مِطَالَ الجُوعِ حَتَى أُميتَهُ * وأَضْرِبُ عَنْهُ الذِّكْرَ صَفْحَاً
وأَسْتَفُّ تُرْبَ الأرضِ كَيْ لا * عَليَّ، مِنْ الطَّوْلِ، امْرؤٌ مُتَطَوِّلُ
وَلَوْلا اجْتِنَابُ الذَّأمِ لَمْ يُلْفَ * يُعَاشُ بِهِ، إلا لَدَيَّ، ومَأكَلُ

أُديم: من المداومة، وهي الاستمرار. المطال: المماطلة. أضرب عند الذِّكْر صَفْحاً: أتناساه. فأذهل: أنساه. يقول: أتناسى الجوع، فيذهب عنّي .وهذه الصورة من حياة الصَّعْلَكَة.

الطَّوْل: المَنّ. امرؤ متطوّل: منّان. والمعنى أنه يفضل أن يستفَّ تراب الأرض على أن يمدّ أحد إليه يده بفضل أو لقمة يمنّ بها عليه .

الذَّأم والذَّام: العيب الذي يُذمّ به. يُلفى: يوجد. والمعنى: لولا تجنُّبي ما أذمّ به، لحصلت على ما أريده من مأكل ومشرب بطرق غير كريمة .

وَلَكِنَّ نَفْسَاً مُرَّةً لا تُقِيمُ بِيعى * الضَّيْمِ إلا رَيْثَمَا أَتَحَوَّلُ
وَأَطْوِي على الخُمْصِ الحَوايَا كما انْطَوَتْ * كما انْطَوَتْ خُيُوطَةُ مَارِيٍّ تُغَــارَ وَتُفْتَلُ
وأَغْدو على القُوتِ الزَّهِيدِ، كما غَدَا * غُدَافِزَلٌ تَهَادَاه التَّنائِفُ، أَطْحَلُ*
مَشْرَبٌ

مرَّة: صعبة أبيّة. الذَّام: العيب. وفي هذا البيت استدراك، فبعد أن ذكر الشاعر أنّه لولا اجتناب الذمّ لحصل على ما يريده من مأكل ومشرب، قال إن نفسه لا تقبل العيب قَطّ .

الخَمص: الجوع، والخُمص: الضُّمر. الحوايا: جمع الحويَّة، وهي الأمعاء. الخيوطة: الخيوط. ماريّ فاتل، وقيل: اسم رجل اشتُهر بصناعة الحبال وفتلها. تغَارُ: يُحكم فتلها. والمعنى. أطوي أمعائي على الجوع، فتصبح، لخلوّها من الطعام، يابسة ينطوي بعضها على بعض كأنها حبال أُتقن فتلها . أغدو: أذهب في الغداة، وهي الوقت بين شروق الشمس والظهر. القوت :الطعام. الزهيد: القليل. الأزلّ: صفة للذئب القليل اللحم. تهاداه: تتناقله وتتداوله. التنائف: الأرضون، واحدتها تنوفة، وقيل: هي المفازة في الصحراء .الأطحل: الذي في لونه كدرة. يشبه الشاعر نفسه بذئب نحيل الجسم جائع يتنقل بين الفلوات بحثاً عن الطعام .

شَكَى وَشَكَتْ، ثمَّ ارْعَوَىْ بَعْدُ وارعوت * لَلصَّبْرُ، إنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكْوُ، أَجْمَلُ
وَفَاءَ وَفَاءَت بَادِرَاتٍ؛ وَكُلَّها عَلى * نَكَظٍ، مِمَّا يُكَاتِمُ مُجْمَلُ
فإن تَبْتَئِسْ بالشَّنفَرَى أمُّ قَسْطَ * لِلَما اغْتَبَطَتْ بالشَّنْفَرَى قَبْلُ أطْوَلُ *

شكا: أظهر حاله من الجوع. ارعوى: كفَّ ورجع. الشكو: الشَّكوى. وعجز هذا البيت حكمة، ومفادها أنَّ الصبر أفضل من الشكوى إن كانت غير نافعة . فَاءَ: رجع. بادرات: مسرعات، وبادره بالشيء أسرع به إليه. النكظ :شدَّة الجوع. يكاتم: يكتم ما في نفسه. مُجْمِل. صانع للجميل. وفي هذا البيت يتابع الشاعر وصف الذئاب، فيقول إنهنَّ بعد يأسهن من الحصول على الطعام، عدن إلى مأواهنَّ، وفي نفوسهن الحسرة والمرارة .

تبتئس : تلقى بؤساً من فراقه. القسطل: الغبار. وأمّ قسطل: الحرب. و"ما "، في " لما " بمعنى الذي. اغتبطت: سرَّت. والمعنى أنَّ الحرب إذا حزنت لفراق الشنفرى إيَّاها، فطالما سرَّت بإثارته لها .

الصبر والحلم:

فَإمّا تَرَيْنِي كَابْنَةِ الرَّمْلِ، ضَاحياً عَلى رِقَّةٍ أَخْفَى وَلا أَنْتَعَّلُ

فَإنّي لَمَوْلى الصَّبْرِ أَجْتَابُ بَزَّهعلى مِثْلِ قَلْبِ السِّمْعِ، والحَزْمَ

وأُعْدِمُ أَحْيَانَاً، وأَغْنَى، وإنّمَا يَنالُ الغِنَى ذُو البُعْدَةِ المُتَبَذِّلُ

ابنة الرمل: الحية، وقيل: هي البقرة الوحشية. ضاحياً: بارزاً للحرّ والقرّ. رقّة: يريد رقّة الحال، وهي الفقر. وأحفى: من الحفاء وهو عدم لبس النعل. وفي هذا البيت يتخيَّل الشاعر امرأةً، كعادة الشعراء القدماء، فيخاطبها قائلاً لها إنه فقير لا يملك ما يستر به جسده من لفح الحرّ والقرّ، ودون نعل ينتعله فيحمي رجليه . مولى الصبر: وليّه. أجتاب: أقطع. البزّ: الثياب. السِّمع: ولد الذّئب من الضْبع. أنعل: أتخذه نعلاً. يقول إنّه صبور، شجاع، حازم.

أُعدِم: أفتقر. البعدة، بضمّ الباء وكسرها، اسم للبعد. المتبذِّل :المُسِفّ الذي يقترف ما يُعاب عليه. يقول إنه يفتقر حيناً ويغتني حيناً آخر، ولا ينال الغنى إلا الذي يقصر نفسه على غاية الاغتناء .

فَلا جَزِعٌ مِنْ خَلَّةٍ مُتَكَشِّفٌ * دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ
وَلا تَزْدَهِي الأجهالُ حِلْمِي، وَلا أُرَى * سَؤُولاً بأعْقَابِ الأقاويلِ أُنْمِلُ
دَعَسْتُ على غَطْشٍ وبَغْشٍ * سُعَارٌ وإرزيزٌ وَوَجْرٌ وَأفْكُلُ *

الجزع: الخائف أو عديم الصبر عند وقوع المكروه. الخَلَّة: الفقر والحاجة. المتكَشِّف: الذي يكشف فقره للناس. المَرِح: شديد الفرح .المُتخَيِّل: المختال بغناه. يقول: لا الفقر يجعلني أبتئس مظهراً ضعفي، ولا الغنى يجعلني أفرح وأختال . تزدهي: تستخفّ. الأجهال: جمع الجَهْل، والمقصود الحمق والسفاهة .سؤول: كثير السؤال، أو ملحّ فيه. الأعقاب: جمع العقب، وهو الآخر. أنمل :أنمّ، والنملة، بفتح النون وضمّها، النميمة. والمعنى أنّ الشاعر حليم لا يستخفه الجهلاء، متعفِّف عن سؤال الناس، بعيد عن النميمة وإثارة الفتن بين الناس .

النَحْس: البرد. يصطلي: يستدفىء. ربّها: صاحبها. الأقطع: جمع قِطْع، وهو نصل السّهم. يتنبَّل: يتخذ منها النّبل للرمي. والمعنى: ربَّ ليلةٍ شديدة البرد يُشعل فيها صاحب القوسِ قوسَه ونصال سهامه، فيجازف بفقد أهمّ ما يحتاج إليه، ليستدفىء.

الخاتمة

تمكن العرب من نشر قيمهم عبر بيئتهم ومجتمعهم وعمل بها الكثير منهم خصوصاً الزعماء الذين كانت بأيديهم زمام أمورهم وكان هذا واضحاً من خلال أشعارهم التي عكست لنا تلك القيم والتمسك بها الذي يعطيك حق السيادة أو عدم التمسك بها الذي يجعلك جباناً ومتخاذلا والإسلام أمر بتهذيب هذه القيم وتمامها كما ورد على لسان سيدنا محمد (ﷺ)(إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وقد أظهرت نتائج كثيرة من الدراسات السابقة تحقيقاً لهذه الأهداف. ولايتم تحقيقها إلا بالدراسات المستمرة التي تذكرنا بأهميتها وذلك للعمل بها.

الهوامش:

1.ابن منظور، لسان العرب "مادة خلق" ص 140 (دار صادر بيروت للطباعة والنشر – طبعة جديدة ومحققة ج5 لبنان ص. ب. 10، بيروت 2000.

2.ابن فارس، مقاييس اللغة 214/2 تحقيق عبد السلام محمد هارون.

3.الراغب الاصفهاني: المفردات، ص 148، إعداد د. نظمي خليل ابو العطا.

4. ابن منظور: لسان العرب "مادة خلق" ص 140.

5. الطاهر بن عاشور – تفسير التحرير والتنوير – : هو محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس عام 1879م يعد من كبار مفسري القرآن الكريم في العصر الحديث ج19 ص 171–172.

6. أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب، ج1، الجامعة السورية. 1956م، ص 83–84.

7. ابن عبد ربه. المجلد الثاني، الجزء الأول. ص 8. وما دمنا بصدد ابحث في القيم فنلاحظ انه باستثناء زرقاء اليمامة التي ضرب بها المثل في قوة البصر، وهي صفة جسيمة، فان امرأة واحدة هي التي ضرب بها المثل في خصلة محمودة: الاتناع للرجل. أما الباقيات فقد اقترفت بهن صفات غير محمودة: النحس،الحمق، القوادة والزنا بينما انصرفت الخصال الحميدة

(السخاء، الشجاعة، العزة، الوفاء، الذكاء، البلاغة، الحلم والصدق) الى الرجال وحدهم. وهذا يعطينا فكة عن قيمة المرأة في المجتمع العربي الجاهلي) والملاحظ انه لم يذكر أكثر من صيفي الذي يصفه ابن عبد ربه نفسه في مكان آخر بأنه "حكيم العرب".

[8] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص 87، وفي الديوان ص 32، أوفى بالعهد ومن يوفي بعهده لم يلحقه ذم، يتجمجم: لم يمتنع في اسدائه وإيلائه. هو زهير بن ربيعة الملقب بأبي سلمى وهو من شعراء الطبقة الأولى من الجاهلية وكان يتألف ويتعفف في شعره وأعجب بشعره عمر بن الخطاب.

[9] تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي بالعراق 1957 ج6 ص 326، يقره : أي يشد صنه.

10. "لشنفرى" في اللغة: هو الغليظ الشفتين

[11] "الإعلام"، الزركلي: 85/5

[12] "خزانة الأدب"، البغدادي: 16/2.

[13] "الأغاني"، الأصفهاني: 201/21–205.

[14] "صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية"، د. منذر معاليقي، دار ومكتبة الهلال، ط1، 1995م: ص32.

[15] "صفحات مطوية من تاريخ عرب الجاهلية"، د. منذر معاليقي، ص 33.

[16] "لسان العرب"، ابن منظور: 2452/4 (مادة صعلك).

[17] "ديوان الصعاليك" : ص 56.

[18]. "ديوان الصعاليك" : ص 145-146.

[19]. "ديوان الصعاليك" ص 95.

[20]. "ديوان الصعاليك" ص 60.

[21]. "مجمع الأمثال"، الميداني: 46/2.

[22]. "تاريخ الأدب العربي"، فروخ، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1984م: 102/1.